الصورة الشعرية في قصيدة أنشودة المطر

" لبدر شاكر السياب " دراسة تحليلية

د. السعيد لراوي
قسم اللغة العربية
جامعة باتنة

ملخص

ركزت هذه الدراسة على تشريح نص شعري هو " أنشودة المطر " لبدر شاكر السياب (1926- 1964) انطلاقا من كونه رؤيا دالة على واقع حضاري متصدع، يشد الرمز الأسطوري فيها مفاصل النص، ويمنحه ظلالا وإشعاعا وغنى في البعد الدلالي والجمالي. وبذلك تحول النص إلى نبوءة تعلوها نبرة الابتهال وتنتهي بحتمية الانتصار. ان الصورة الشعرية في نص السياب تنهل من تموجات الحركة النفسية للشاعر، وبذلك تنتقل من الرؤية البصرية إلى الرؤية الادراكية.

Résumé

Le présent article tente d'étudier la structure poétique du poème intitulé:" la chanson de la pluie", de BADR CHAKER ESSAYEB (1926-1964). S'inspirant du symbolisme mythique, ce poème, d'une dimension sémantique riche et révélatrice reflète l'image d'une réalité civilisationnelle fracassée d'où le sentiment de victoire et d'optimisme de l'auteur. En ce sens, l'image poétique du poème ne peut être saisie ni séparée de l'état d'âme de l'auteur lui-même.

مدخل:

لقد ذابت آلام السياب في تراب أرضه التي نشأ عليها، و تغنى بالشعر حتى الرمق الأخير لينفس عن عذابه. فكسى كلماته من إحساسه. وسقاها بعصارة تجاربه ليقدمها للناس جميعا.

ترك بعد وفاته سنة 1964عدة دواوين: أزهار ذابلة، أزهار وأساطير، المعبد الغريق، منزل الأقنان، أنشودة المطر، شناشيل ابنة الجلبي، الأسلحة والأطفال وغيرها.

لقد أحب السياب وطنه، وتمنى للعراق الخير العميم دوما، والمطر الدائم الهطول، فهو صورة رمزية يمكننا إدراكها بمجرد أن نأخذ في الاعتبار، أن بدرا واحدا من أبناء البادية البسطاء المحتاجين للريح والمطر والوطن. ونرى أن اتكاء الشاعر على صورة المطر في معالجة قضايا مجتمعه أمر حديث.[1]

كان بدر يحمل آمالا عريضة لبني وطنه و لكل من يناضل من أجل حياة يسودها العدل والإخاء، ومن أجل حياة خالية من العوز والاستغلال. لكن مصالح الطبقة الحاكمة في العراق كانت منشغلة بتطبيق سياسة القمع وتشديد الرقابة. وتحول العراق في عهد "نوري السعيد " إلى دولة بوليسية. وكان السياب ضحية علاقات معقدة ظالمة في مجتمع مبني على القهر والفساد واليأس.

قراءة في قصيدة أنشودة المطر[2]

القصيدة من ديوان "أنشودة المطر " وهو من إطلاق الجزء على الكل ناسب فيه السياب بين "المطر" الرمز، وأجراه في عروق المحور الأساسي للنص قصيدة "أنشودة المطر" كثيرة الأحاسيس نجد فيها شيئا يمكن أن نسميه الأمل البارز متمثلا بالسحب الممطرة، التي وكأنها تريد من جانبها أن تروي السياب تفاؤلا.

ونحسب أولا أن السياب ـ في بداية القصيدة ـ يناجي حبيبته الجميلة المرسلة الأهداب، في عينيها تتلألأ الأضواء الخافتة. ولكننا نكتشف بعد قليل؛ أن هذه المعشوقة الجميلة التي ينأى القمر عن عينيها، فيخبو فيهما الأمل، ليست إلا العراق العربي الحزين ينتظر قرب تحقق الولادة لتتجدد الحياة[3] يقول الشاعر:

عيناك غابتا نخيل ساعة السحر،

أو شرفتان راح ينأى عنها القمر

عيناك حين تبسمان تورق الكروم

وترقص الأضواء... كالأقمار في نهر

يرجه المجداف وهنا ساعة السحر

كأنما تنبض في غوريهما، النجوم

فقد بدأ القصيدة بضبابية، ولكن سرعان ما يتجلى ما يقصده حين يذكر ليالي الصحو، بالنخيل والنهر الذي تتراقص عليه الأقمار. يذكر هذه الطبيعة الفاتنة في الإصباح والإمساء. نستشف من هذا أن الشاعر متيم بأرض العراق كلف بها، تلكم هي الطبيعة التي قامت مقام المرأة. وهو هنا يحن إلى العراق الأول. قبل أن يتحول إلى حالة من الضير والقهر الذي تعانيه جماهير الشعب العراقي متمثلة في كادحيه وفلاحيه[4]. وهي صورة رومانسية تجنح للخيال، جمال متشتت؛ البحر والليل، والأضواء المتراقصة والأقمار، الصورة نصفها مضيء والنصف الآخر يجذبه الواقع إلى الظلمة. فعهود الظلم التي مرت على العراق كانت لبلاده موتا وتتجلى فرحة الشاعر وتفاؤله في ألفاظ: تبسمان، تورق، ترقص...ولكنه سرعان ما يعود إلى الضبابية والتشاؤم بتأرجح وتثاقل:

وتغرقان في ضباب من أســى شفيف

كالبحر سرّح اليدين فوقه المساء،

دفّء الشتاء فيه وارتعاشة الخريف،

والموت، والميلاد، والظلام، والضياء؛

فتستفيق مــلء روحي، رعشة البكاء

ونشوة وحشية تعانق السماء

كنشــوة الطفل إذا خاف من القمر

يعود السياب ثانية إلى الضبابية ويعلو النص نوع من القنوط، كون أن هذا الواقع المؤلم أبعده عن الخيال المفرح. فمن العنين تسرب الألم والحزن. ان بدرا يحمل آمالا عريضة لبني وطنه ولكل من يناضل مثله من أجل حياة أفضل في العالم.

ومن أجل حياة خالية من العوز والاستغلال، ومفعمة بالحرية والخير. لكن مصالح الطبقة الحاكمة في العراق كانت منشغلة عن هذه الآمال في هذا الوقت. ثم يمزج ذلك بالبحر رمز العطاء، والوحشة. عندما يتذكر ذلك ينتابه إحساس بالبكاء دون سبب وإحساس بالوحشة. يتجاذبه انفعالان؛ إحساس بالتفاؤل، وإحساس بالتشاؤم، بسمة ممزوجة بالحزن. وكذلك في الشتاء والخريف: ميلاد وموت. كل ذلك انفعالات، تنتابه فتتحول إلى نشوة عارمة غامرة غامضة، تماما كنشوة الطفل حين يخاف دون سبب، ويبكي حين يرى القمر ليلا. ويشعر السياب بوحشة نامية إلى السماء، فيعيش بين تجاذب قطبين حزن وأمل، فرحة وأسى...تمازج خلاق بين الفنان ومجتمعه. ويضع القارئ في جو كامل لترقب البعث.[5]

وفي المقطع اللاحق وبوصل بلاغي (كأن) تتداعى الصور في المقطع اللاحق:

كأن أقواس السحـــاب تشرب الغيوم

وقطـرة فقطـرة تـذوب فـــي المطر

وكركـر الأطفـال في عرائش الكروم،

ودغدغت صمت العصافير على الشجر

أنشودة المطر

مطر

مطر

مطر

قوس قزح هذه الصورة تدل على ما انتاب الشاعر من هواجس مفعمة بالحسرة والأسى، ولكن سرعان ما يربطها الأمل البراق المترائي من بعيد، فأقواس الفرح تنبئ بهطول المطر رمزا للخير الذي سيعم العراق، بعد الجذب والعقم. وأنه حتما سيغني الأطفال أغنياتهم المبشرة على أنغام قطرات المطر. فالبشر قد حل، وبرعمت الأشجار. وستزقزق العصافير طربا للوضع الجديد، ويمتزج هذا كله ليكون أغنية مشبعة بالأمل، وكأنه يرسم بالكلمات وبالصورة تموجاته النفسية: ابتدأت بالضبابية فالإشراق، ليعود إلى الضبابية. تأرجح ينم عن قلق وحيرة، ثم الأمل والتفاؤل في المقطع الأخير، تجسده دغدغة الفرح التي تعلو أصوات العصافير.

وهكذا يصل إلى اليتيم الذي ربما يعني به نفسه، حين صدم بفاجعة موت أمـه،[6] وما أصابه من يتم وهو صغير لا يعرف من الحياة شيئا:

تثاءب المساء، والغيوم ما تزال

تسح ما تسح من دموعها الثقال.

كأن طفلا بات يهذي قبل أن ينام:

بأن أمه – التـي أفـاق منذ عام

فلم يجدها، ثم حين لج في السؤال

قالوا لـه: "بـعد غد تـعود" ـ

لا بد أن تعود

وأن تهامـس الـرفاق أنها هناك

في جانب التـل تنام نومة اللحود

تسف من ترابها وتشرب المطر؛

فقد ابتدأ المقطع بضبابية في الرؤيا "تثاءب السماء..." هاجس الخوف والترقب، أيقض في نفسه محنته الخاصة: الخوف من عدم جدوى البحث عن أمه وصدق أنباء موتها.ويتشابه الأمر مع الخوف، وترقب نزول المطر.

وليس أشق من الحزن عند الشاعر؛ مثل حزن الطفل حين يسأل عن أمه الميتة، وبالضبط قبل أن ينام، وهو الضرير الذي لا يعرف المسألة، وإذ يلح في السؤال قالوا له: ستأتي بعد غد.. هذه هي فاجعة اليتم يتم السياب عندما توفيت عنه والدته، وهو يلح في السؤال عنها فمنوه بعودتها، ثم يعلم في الأخير أنها ماتت وأنها اندثرت في القبر، وقد تمكن من نقل الواقع بصورة جلية، أقرب إلى النثر منها إلى الشعر، إلا في آخر المقطع الذي فيه إيحاء شعري: "تسف من ترابها وتشرب المطر..." وقد غلب على هذا المقطع الحزن الشفاف، والأمل الواجم، والانتظار الممزوج بالحيرة، وتحول المطر إلى دموع

ثم يذكر الشاعر الصياد وكأنه السياب ذاته وهو يعاني فاجعة خائب، غريب في مجتمعات لا تقدر الشاعر، ورغم هذا الحزن فهو يذكر المطر:

كان صيادا حزينا يجمع الشباك

ويلعن المياه والقدر

وينثر الغناء حين يأفل القمر.

الصياد يلقي الشباك فتعود خالية خاوية، في طلب الرزق والصدفة في تحصيله والخوف منه في آن واحد.

فقد اتخذ رمز الصياد للجزء مقابل الكل، والحادثة الفردية كرمز للمصير العام. فعذابه وعذاب الآخرين مخاض يليه ميلاد حياة جديدة . وصارت الصورة الفنية العامة للقصيدة تستوعب بطريقة تركيبية متلاحمة كل عناصر الفن الشعري.[7] الإنسان يكافح في هذا الوجود: يكافح في سبيل الرزق ويكافح في سبيل تغييره. نستشف –من خلال النص- أن الشاعر قد بلغ قمة التشاؤم في وصف الواقع، ولا ينس تغنيه بالمطر رمز الخير والعطاء، لكنه يوحي بالحزن

وقد جعل المطر يوحي بالحزن لأنه مطر يذكره بأهله في اغترابه، ليثير فيه انفعالين: التفاؤل والتشاؤم، بل وأصبح يوحي بالبكاء:

أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا انهمر؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع؟

بلا انتهاء–كالدم المراق، كالجياع،

كالحب، كالأطفال، كالموتى–هو المطر!

ومقلتاك بي تطفيان مع المطر

وعبر أمواج الخليج تمسح البروق

سواحل العراق، بالنجوم والمحار،

كأنها تهمّ بالشروق

فيسحب الليل عليها من دم دثار.

كيف يشعر الوحيد –أي الشاعر– حين ينهمر المطر، وكيف يوحي له هذا الموقف بالضياع اللامتناهي... كالدم. المراق... شيء فضيع... حزن وكآبة، فالمزاريب تبكي، والوحيد يضيع، وهطول المطر يبعث على الحزن. ولكن في نفس

الوقت يزاوج بين النقيضين: فبجانب الحب... نجد الموت، وبجانب الدم نجد الجياع، إلى جانب ازدواجية الحب والأطفال رمزي الأمل الجديد.

المطر يبعث الحزن لأن الخيرات ستذهب لفئة معينة متسلطة أصبغ عليها صورة فيها دلالة الكراهية " الغربان " و" الجراد ". أما الجوع فهو حصاد الفلاح:" ما مر عام إلا والعراق فيه جوع". "ومنذ كنا صغارا ونحن نجوع". وعندما تهب الثورة ويؤمن بها الثوار، عندها ستحاول سواحل العراق أن تشرق لأن عالم التغير قد هل و تجلى.

إن سواحل العراق، والخليج تحاول أن تضيء، تضيء فيها النجوم كأنها تريد أن تشرق، فينسدل عليها ليل جاف فيه قسوة. لأن الثورة لم تقم، وخيرات البلاد لا تعم. ويصيح الشاعر مستنهضا الهمم:

أصيح بالخليج: "يا خليج

يا واهب اللؤلؤ، والمحار، والردىّ! "

فيرجع الصدى

كأنه النشيج:

"يا خليج

يا واهب المحار والردى "

ويردد الخليج صيحة الشاعر، كي يحوله إلى حياة. يدعو إلى الثورة وضرورة التغيير والتحرك، لكنه الوحيد الذي يؤمن بالثورة، وأما الشعب فمازال يئن ولا يثور. والخليج ما زال يغدق الخيرات: فيه اللؤلؤ، والمحار والردى. لكنه لا يعطي للشعب والعمال إلا الأصداف الفارغة والموت، أما اللؤلؤ فيذهب لفئة معينة. لذلك حذف في صدى صوته لفظة "اللؤلؤ ".

ولكن كل ما يحدث أن صراخه يصير صدى تذروه الرياح، فالعدم والموت هو المهيمن، وما يعيشه الفقراء كل عام هو الجوع. والخليج رمز للعراق الثري الذي فيه الخصب والثراء. فالخليج يهب اللؤلؤ والمحار، أي الثراء، والجمال، فيثير المستغلين دون كدح، ويقتل أبناء الكفاح والفقر، لدلك نجد صوته رجع وحيدا. الصدى يرجع له صوته مهزوما لأن الشاعر هو الوحيد الذي يعي ضرورة التغيير.

ذلك هو الواقع، الذي يوحي بالوحشية، ومن تلك الوحدة يظهر الحلم، فإذا التف الشعب حول الثورة وآمن بحتمية انتصارها فسيثور. ويضع حدا لأنينه وفقره. وضرورة التغير، تحتم ضرورة الثورة العارمة، التي لا تبقي ولا تذر.وضرورة التهيؤ، والالتفاف حولها:

أكـاد أسمع العراق يـدخر الرعـود

ويخزن البروق في السهول والجبال،

حتى إذا ما فض عنها ختمها الرجال

لـم تـتـرك الـرياح من ثمود

فـي الــواد مــن أثــر.

أكـاد أسمع النخيل يشرب المـطر

وأسـمع القرى تئن، والمهاجرين

يصارعون بالمجاديف وبالقلوع،

عواصف الخليج، والرعود، منشدين:

مطر . . . مطر . . مطر . . .

فالنص ينبئ بالثورة العارمة التي تسعى لتغيير الواقع، ثورة عارمة تشبه الإعصار، وهي إشارة إلى جبروت تاريخي للعراق، والثورة تقوى بالاستعداد لها. ذاك هو الأمل المنشود. هناك الرعود والبروق المختزنة، ستنفجر لتمحو وإلى الأبد الأجساد المفترسة، وما كلمة "تموت" إلا للإيحاءً باليقين والحتمية في التغيير.

والثورة تستمد قوتها من الواقع المعاش فالحرمان والاستغلال والفقر والجوع هي الوقود لاشتعال الثورة:

وفي العراق جوع

وينثر الغلال موسم الحصاد

لـتـشـبـع الـغـربـان والـجـراد

وتـطـحـن الـشــوان والـحـجـر

رحى تدور في الحقول ...حولها البشر

مطر... مطر... مطر...

فثمة لآلئ ومحار، إلا أن الإقطاع بالمرصاد.

هذا هو العراق الثري بغلاله، بخيراته. لكن هناك أيضا مستغلون؛ فلا بد من قرابين تقدم للثورة حتى تنتصر. قرابين الشهداء الذين يضحون من أجل الانتصار ليحيا الجيل الجديد، و يقترب من الربيع الذي يحلم به.

إن الجوع هو ما يعيشه العراقي في كل عام. لأن ثمة استغلال يمتص هذا الخير. يتحدث عن الحزن الذي يصيبه رغم هطول المطر، لأن عائدات المطر لا تنتفع منها إلا الفئة المتسلطة. ثم يعود إلى الماضي من جديد ليستمد منه قوته عندما فر إلى الكويت:

وكم ذرفنا ليلة الرحيل، من دموع

ثم اعتللنا – خوف أن نلام – بالمطر

مطر

مطر

فرغم الإخفاق في قيام الثورة والتفاف الشعب حولها، ورغم خيبة الأمل، سيعيش العراق بالثورة، هذا الأمل سيتحقق بانتصارها عندما يؤمن بها أبناؤها:

ومنذ أن كنا صغارا، كانت السماء

تغيم في الشتاء

ويهطل المطر،

وكل عام ـ حين يعشب الثرى ـ نجوع

ما مر عام والعراق ليس فيه جوع.

مطر... مطر... مطر...

مطر دائم منذ أن كنا صغارا، وجوع دائم منذ الصغر أيضا. المقطع يصور قلق الشاعر وتخوفه من المطر، وإحساسه بروعته في آن واحد. يتحدث عن الحزن الذي يصيبه، ويصيب الجماهير الكادحة، على الرغم من هطول المطر، وخصب الأرض. ما مر عام إلا وفي العراق جوع، ويستمر تساقط المطر في حقول العراق:

في كل قطرة من المطر

حمراء أو صفراء من أجنة الزهر.

وكل دمعة من الجياع والعراة

وكل قطرة تراق من دم العبيد

فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد

أو حُلمة توردت على فم الوليد

في عالم الغد الفتي، واهب الحياة !

مطر ...

مطر ...

مطر ...

سيعشب العراق بالمطر

يدعو السياب صراحة للثورة بل ويتفاءل بنجاحها، وحتمية انتصارها: حين يلتف حولها الشعب. وما "الورد" إلا رمز للنماء والخير المنتظر للعبيد، لهؤلاء المضطهدين الجياع.

إن المطر لا بد من أن يلد عشبا، وريا، وهذا العشب والري من حق الذين يصنعون الحياة بدمائهم، وليس من حق الغربان والجراد والأفاعي. وسيولد الطفل - رمزا للجيل الجديد - الذي سيفتح عينيه على الخير وينعم بالمطر... ويتحول الخليج إلي واهب اللآلئ والمحار. وهكذا تمتزج الطفولة بالأحلام بالآمال... آمال الشاعر في الثورة وحتمية انتصارها ولكن الثورة لم تقم بعد. والاستغلال هو المهيمن، فلا جدوى من قيام الثورة وألف أفعى تتمتع بعرق الفلاحين ولا تتركهم إلا جثثا هامدة. هذا هو رد الخليج:

وينثر الخليج من هباته الكثار،

على الرمال: رغوة الأجاج، والمحار

وما تبقى من عظام بائس غريق

من المهاجرين ظل يشرب الردى

من لـجة الخـلـيـج والـقـرار،
وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق
مـن زهـرة يـربُها الفرات بالندى
وأسمع الصدى
يرن في الخليج
مطر... مطر... مطر...

المقطع عبارة عن جملة شعرية كاملة، مزج فيها العراق مع الخليج، والصورة التي أرادها من وراء ذلك؛ هو أن يعرض بؤس العراق والخليج. فالخليج يلفظ المحار الأجوف، إن الموت هو المهيمن، والجوع هو ما يعيشه الفقراء، لأن هناك أفعى تمتص عرقهم وجهدهم، فتستحيل إلى عظام يلفظها الخليج على الرمل، ولا يهب إلا رغوة الأجاج، ولا يهب إلا ما بقي من عظام بائس فقير. و لم يبق من خير العراق سوى الملح، والرغوة، والمحار الفارغ، وبقايا إنسان يكافح فيخرج ميتا: "الملح – المحار – الفارغ – الموت" هذه هي بؤرة الصورة في القصيدة.

فلا بد من ثورة تجتث هذا الواقع، ورغم كل هذا: سيعشب العراق بالثورة. وما قطرات المطر في آخر القصيدة إلا ابتسام في انتظار مبسم جديد.

وما هذا التكرار –المقطع الأخير– إلا تأكيد على أن الخير سيعم، وتأكيد على ضرورة التفاؤل بالمستقبل الموعود، وأن الخير لا بد آت:

"في كل قطرة من المطر
حمراء أو صفراء من أجنة الزهر.
وكل دمعة من الـجيـاع والعراة
وكـل قطـرة تراق من دم العبيد
فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد
أو حُلمة تـوردت على فم الوليد
في عالم الغد الفتي، واهب الحياة "
ويهطل المطر

فعلى الرغم من الأسى[8] والحزن والجوع، وتحت سيول من الدموع، والعرق والموت[9] والدم، فإن هناك ثورة تحمل الناس إلى الربيع الذي يحلم به الطفل الوليد (الجيل الجديد). وهو إذ يعبر عن كل ذلك، يقرنه بالواقع المليء بالمرارة، والأمل.

البعد الدلالي لرمز المطر و نبوءة الانبعاث:

لقد حاول بدر أن يصور الزمن الذي يحمل في رحمه الثورة العنيفة التي تبشر بالخصب والعدل والحرية، وتجهز على الطغاة. إن شاعرا مثل السياب الذي استطاع أن يطرح مشاكله الذاتية، ويتبنى قضايا وطنه من خلال تبنيه للثورة التي يتنبأ بها ويتبناها ويؤمن بحتمية نجاحها استطاع أن يكون شاعرا ملتزما على مستوى الواقع والوجود. وعلى مستوى الموهبة الشعرية التي حباه الله بها.

فالمطر: الدموع. والمطر: قطرة صفراء. والمطر: قطرة حمراء. وهو ما يعني القتل والدم. هي عملية إخصاب وميلاد جيل جديد. ومبسم مبشر: بواقع جديد.

قصيدة أنشودة المطر تطالعنا بالمفارقات التي تعيشها البلاد العربية، وعند قراءة نتاج الشاعر نجده محاولة للنفاذ إلى عمق هده التناقضات والتحولات التي شهدتها المجتمعات وشهدتها القصيدة العربية. ولذلك فالقصيدة تجسد الصراعات التي عاشها العصر، وعاشها الشاعر.

النص – أنشودة المطر – يتجلى في شكل حشد من الومضات المتناوبة لتكشف المتناقضات، ثم تذوب من جديد في نبرة درامية. والرمز يشد مفاصل القصيدة ويمنحها ظلالا من القوة والجمال.[10] وتتحول القصيدة إلى نبوءة تعلوها نبرة الابتهال في مستهل القصيدة.

المطر يخضب الأرض، وهو عند السياب مادة استثمرها لإخصاب الثورة ومن ثم نجاحها. كما اعتمد على تداعيات الصورة الشعرية وهي تداعيات تمثل الجذر الذي تعتمده القصيدة [11]

فكان رمز المطر أوسع بعدا في هذه القصيدة عن غيره من القصائد، وجاء نجاح القصيدة في تمكن الشاعر من توظيف رمز" المطر" في معالجة قضايا مجتمعه. كما يرجع إلى كون القصيدة تحمل هما فرديا ممزوجا بهموم شعبه. وتتخذ توجهاتها الكبرى مؤكدة دائما على حتمية الخلاص الجماعي"سيعشب العراق". أما الواقع "وفي العراق ألف أفعى تشرب الرحيق".

هندسة النص:

بنيت القصيدة على ازدواجية التضاد: بين الخصب والجفاف، الموت والحياة، اليأس والأمل، الضبابية والإشراق، الجزئي والكلي.

كما أن القصيدة يتجلى فيها الزمن الماضي، ثم الحاضر والمستقبل. وهي من بحر الرجز: مستفعلن. تكررت فيها كلمة المطر 13 مرة. وتكررت كلمة الخليج 07 مرات. وتكررت كلمة الردى 05 مرات. وكلمة العراق تكررت 05 مرات. وكلمة طفل تكررت 04 مرات. وكلمة محار تكررت 04 مرات أيضا. وهذا ما يؤكد أهمية هذه الكلمات في التجربة الشعرية للشاعر. وقد بنيت القصيدة على ازدواجية التفاؤل والتشاؤم وهي كما يلي:

التفاؤل	التشاؤم
عيناك غابتا نخيل	راح ينأى عنها القمر
عيناك حين تبسمان	تغرقان في ضباب من أسى شفيف
ترقص الأضواء	كالبحر سرح اليدين فوقه المساء
كأن أقواس السحاب تشرب الغيوم	كنشوة الطفل إذا خاف من القمر
كركر الأطفال في عرائش الكروم	رعشة البكاء
دغدغت صمت العصافير على الشجر.	تثاءب المساء
أكاد أسمع العراق يدخر الرعود	تثاءب المساء والغيوم ما تزال
أكاد أسمع النخيل يشرب المطر	كأن صيادا حزينا يجمع الشباك
كل قطرة تراق من دم العبيد	أتعلمين أي حزن يبعث المطر
فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد	وكيف تنسج المزاريب إذا انهمر
	وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياع

كما بنيت القصيدة على ازدواجية الموت والحياة كما في الجدول الأتي:

الموت	الحيـــاة
الموت	تبسم
الظلام	ترقص
الجوع والألم	يرج
السحر	تورق

ينأى القمر تثاءب المساء	تنبض الميلاد الضياء الخصب تنبض في غوريهما النجوم

وبنيت أيضا على الجزئية والكلية:

الجزئية	الكلية
كأن طفلا كأن صيادا الوحيد بالضياع في كل قطرة حمراء أو صفراء دمعة كأن طفلا بات يهذي يا واهب المحار والردى عظام بائس	أسمع العراق يدخر الرعود ما مر عام والعراق ليس فيه جوع في العراق ألف أفعى

القصيدة نابضة بالحياة، موسومة بعذاب الجسد وباستعباد الناس البسطاء، وحاجتهم للمطر، والوطن

وإذا عدنا إلى واقع الشاعر الفردي نجده متشبثا بالمطر الذي يشكل لدى ناسها خيطا يمتد إلى أعماق كل واحد فيهم، ويوقظ فيهم عالما غريبا متجذرا في كل جذع نخلة عندهم.

يتمحور المقطع الأول حول العينين – الغور – والمخاطب هو الحبيبة – العراق – ومن ورائهما عشتار. ونجد دلالة العينين في:

غابتا نخيل ساعة السحر: ضبابية- تشاؤم.

شرفتان: راح ينأى عنها القمر: ضبابية ـ تشاؤم.

حين تبسمان: تورق الكروم: إشراق.

ترقص الأضواء:إشراق ـ أمل.

ساعة السحر:ضبابية.

تنبض في غوريها النجوم: إشرا ق ـ ضبابية.

أما الغور: فيكمن في داخل العين ـ النجوم النابضة.

فاعلية المطر:

المطر الباعث على الحزن: المزاريب ـ الوحيد ـ الدم ـ الموتى.

المطر الباعث على التفاؤل: كأن أقواس السحاب تشرب الغيوم.

ويتربع السياب على سواحل الخليج يرى الناس والعراق، والحياة ويرى الحاضر، والمطر والمستقبل – سيعشب العراق وتنتصر الثورة وانتصرت كما تنبأ بها الشاعر.

وأنين قرى العراق ومهاجريها بمثابة الدعاء لاستنزال مطر الثورة. إن دلالة الصراع لدى السياب دلالة تصور صراع الإنسان مع الخليج، صراع بين قطبين أحدهما يحتاج للآخر.

الخليج الذي يمنح المحار والردى قبل الثورة. هو ذاته الذي يمنح المحار واللؤلؤ بعد الثورة. وأضحت أنشودة المطر هي أنشودة الجماعات المتطلعة للانبعاث وأنشودة السياب أيضا. رمز العلاقة الشعرية بين الذات والموضوع فالصورة الشعرية للقصيدة ليست كما تبدو للوهلة الأولى سطحية ممزقة غامضة. بل هي ذات وحدة شعورية نفسية. تحمل رؤيا ثاقبة للوجود وفق مفهوم حديث للشعر.[12] تبدأ بالابتهال وتنتهي بالتفاؤل وتحمل في طياتها عواصفا، وبروقا ورعودا وتفاؤلا وتشاؤما. كما تدعو لمباركة التغيير، وتقديم قرابين الثورة. لتتحقق النبوءة ويشهد الشاعر انبعاث الأمة:"سيعشب العراق ". ويقوم الإيقاع على فكرة تكرار كلمة "مطر" المستندة على توزيع زمني لحركات التفاعيل[13] وتسهم إسهاما فاعلا في إبراز الحركة النغمية في القصيدة.

البعد الدلالي للرمز الأسطوري:

لقد استطاع الشاعر أن يقيم تكافؤا بين الدلالة الأسطورية "تموز" والدلالة المعاصرة. وأن يخلق صراعا بين الثنائيات، فيتداخل فيها الخاص والعام، وتمتزج الرؤيا الفردية بالرؤيا الجماعية. إلا أننا لا نعثر على الأسطورة في حد ذاتها وإنما نكتشف ظلالها، فقد استلهم "بدر" من أسطورة "تموز" تجربة معاصرة يحاكي فيها الفعل الأسطوري لا ماضيه. واستفاد من أبعادها الدلالية في غلبة الحياة والخصب على الموت والجفاف.

يستهل النص الشعري بابتهال يبدو من سماته أنه موجه لآلهة الخصب "عشتار" لم يشر إليها بالاسم ولكن نتقفى ظلالها من خلال ما تقوم به من أعمال تتجاوز المرأة البشرية. ويمكن أن نقول أن عيني عشتار حين تبسمان تمثلان الولادة وتجدد الحياة: "السحر. الفجر.

تكتسب الأم التي ماتت من عشتار إلهة الخصب الحياة حيث تعود لها الحياة من خلال الأسطورة التي لا تموت. وبذلك اكتسبت الأسطورة ملامح إنسانية والأم ملامح أسطورية.

ان لفظة "المطر" ترمز إلى نقطة واحدة هي امكانية انبعاث الحياة السياسية النظيفة والحياة الاجتماعية السعيدة. وبذلك تجاوز به العادي والمألوف.

كما نجد ظاهرة "التكرار" في قصيدة: "أنشودة المطر". التي تجسد معنى فلسفيا للقصيدة. فلفظة "مطر" التي تكررت "13 مرة" تمثل محطات ينتقل من خلالها الشاعر من فكرة إلى أخرى، كما أنها تنطوي على دلالة فكرية تضطرب في أعماق الشاعر.

وتفسر في محتواها التناقض بين الخير الذي يأتي به المطر، فيعم الفقراء بخيراته، إلا أنه في المقابل على الرغم من سقوطه فان الجذب والقحط والجوع هو السائد في المجتمع لأنه لا ينتفع بهذه الخيرات فهي تذهب لجيوب معينة رمز لها "بالغربان والجراد"، وهذا سر الأسى الذي تعيشه آلهة الخصب وعندما تبتسم ينبعث الخصب. لذلك نجد الشاعر متمسكا بأهداب الأسطورة ومقلتا عشتار

تطوفان به وتطلان به على الواقع الجديد إذا اشتعلت الثورة وانتصرت.

وفيما يلي أورد النصوص التي تجلي ظاهرة التكرار

وكركر الأطفال في عرائش الكروم،

ودغدغت صمت العصافير على الشجر

1 – أنشودة المطر

مطر

مطر

مطر

2 – كأن صيادا حزينا يجمع الشباك

ويلعن المياه والقدر
وينثر الغناء حيث يأفل القمر
مطر
مطر
أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟

3 – رحى تدور في الحقول...حولها بشر

مطر
مطر
مطر

4 – وكم ذرفنا ليلة الرحيل من دموع

ثم اعتللنا – خوف أن نلام – بالمطر
مطر
مطر

5 – ومنذ أن كنا صغارا، كانت السماء

تغيم في الشتاء
ويهطل المطر،
وكل عام – حين يعشب الثرى – نجوع
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع
مطر

مطر
مطر

6 – في كل قطرة من المطر

وكل دمعة من الجياع
وكل قطرة تراق من دم العبيد

فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد

مطر

مطر

7 – أسمع الصدى

يرن في الخليج

مطر

مطر

مطر

.. ..

و يهطل المطر.

8 - في كل قطرة من المطر

حمراء أو صفراء من أجنحة الزهر

وكل دمعة من الجياع والعراة

وكل قطرة تراق من دم العبيد.

فهي ابتسام في انتظار مبسم جديد

أو حلمة توردت على فم الوليد

في عالم الغد الفتي، واهب الحياة"

ويهطل المطر

فلفظة "مطر" تصدر من الشاعر للتعبير عن انعطافات نفسية متباينة. كما أن لها بعدها الدلالي الذي يتمحور في معظمه حول الرخاء الذي سيحدث بفعل المطر، وهو أمل الشاعر. لكن المطر في كل وحدة شعرية يحمل دلالات متغيرة:

الوحدة الأولى: يتنبأ الشاعر بهطول المطر وأن الخير سيعم البلاد، وسيغني الأطفال أغانيهم المبشرة على أنغام قطرات المطر. وستشدو العصافير طربا للوضع الجديد.

الوحدة الثانية: المطر رغم نزوله فان القحط يسيطر على الحياة وقد عبر بالجزء "الصياد" الخائب مقابل الكل، وهو المجتمع الذي يصارع الفقر والقدر، ولذلك فإن المطر عند نزوله يكون باعثا على الحزن.

الوحدة الثالثة: يرد لفظ "مطر" ويرمز إلى الأمل المنتظر منه. لكن ما جاء به من خيرات يذهب إلى فئة قليلة.

الوحدة الرابعة: المطر يذكر الشاعر بالرحيل: عندما فر إلى الكويت، هربا من الاستغلال والفقر المطبق على مجتمعه.

الوحدة الخامسة: المطر ينزل ويتساقط، والأرض تعشوشب والخير يعم، لكن المجتمع يصيبه الحزن عندما لا ينتفع بهذه الخيرات، والجوع هو المسيطر.

الوحدة السادسة: إن المطر يحمل دلالات الموت ويمتزج باللون الأحمر رمز التضحيات، أو اللون الأصفر رمز العرق والسواعد العاملة، يبشر بالثورة على الوضع، فهي تباشير أولى للعالم الجديد الذي سيشرق، وهي الابتسامة المنتظرة التي ستعلو وجوه الفقراء.

الوحدة السابعة: إن المطر سينهمر وينبت زهرة الحرية عندما تنجح الثورة التي ينبغي الاستعداد لها، والإيمان بها والتأكد من حتمية انتصارها. عندها يمكن انتظار ميلاد جديد وبعث جديد وواقع جديد. وتنتهي القصيدة بحتمية هطول المطر تفاؤلا وأملا في الثورة وفي حتمية نجاحها وانتصارها.

إن تكرار لفظ "مطر" الذي ورد أكثر من "أربع وثلاثين مرة" هو تكثيف نفسي، وتطلع من الشاعر لانهياره. وقد أضحى رمزا للخير والأمل والعطاء والانبعاث.

الهوامش

1 - د. هاشم ياغي – الشعر العربي الحديث المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت ص 38 .
2 - بدر شاكر السياب - الديوان - مج 2 - دار العودة -1971 - بيروت ص: 474.
3 - د.يوسف حملاوي - الأسطورة في الشعر العربي الحديث - دار الآداب - ط 1 -1994 - ص:48.
4 - د. عبد الغفار مكاوي - ثورة الشعر الحديث - الهيئة المصرية للكتاب ط1 - 1972 - ص:241
5 - د. احسان عباس - اتجاهات الشعر العربي المعاصر - مجلة عالم المعرفة - فبراير - 1978 - ص:169.

6 - ريتا عوض – أسطورة الموت والانبعاث في الشعر العربي المعاصر - المؤسسة العربية للدراسات والنشر – 1998 . لبنان ص 94 .
7 - د . طه وادي – جماليات القصيدة المعاصرة – دار المعارف – مصر – ط1 1982 ص 17 .
8 - د . عزالدين اسماعيل – روح العصر – دراسات نقدية – دار الرائد العربي – لبنان – 1978 ص 187 .
9 - د. محمد لطفي اليوسفي – في بنية الشعر العربي المعاصر – سراس النشر تونس 1985 – ص 46 .
10 - أنظر د. السعيد العرقي – لغة الشعر العربي الحديث – دار النهظة العربية – لبنان 1984
11 - د.امطنيوس ميخائيل – دراسات في الشعر العربي الحديث – المكتبة العصرية - بيروت – ط1 – 1968 ص 29 .
12 - د. عبد المجيد زراقط – الحداثة في النقد الادبي المعاصر – دار الحرف العربي – لبنان – ط1 1991 . ص 141 .
13 - د عدنان حسين قاسم – الاتجاه الاسلوبي البنيوي في نقد الشعر – مؤسسة علوم القرآن – الشارقة ط1 1992 ص 182